الأب

الأبوة الروحية والأبوة النوعية

حفظ النوع سر من أسرار الحياة الكبرى التي دقَّت عن الفهم ، وحارت في تعليلها عقول عظماء من أهل العلم والحكمة وهو ولا شك يجري على قانون متساوي في جميع طبقات الأحياء ، وأن كنا نحن لا نعلم حقيقته ولا نعرف عمقه ، ولا تزيد عن استقصاء بعض الملاحظات التي تقارب الحقيقة ، أو هي أقرب ما نستطيع الوصول إليه .

وأهم هذه الملاحظات التقريبية أنه يجري على سنة المكافأة والتعويض في معظم حالاته ، فيُقَابَل النقص في جانب بالزيادة في جانب آخر ، ويُقَابَل القصور في مزية من المزايا بالإتقان في مزية أخرى . فالأحياء الدنيا عرضة للمرض والفساد الكثير في طور الولادة والحضانة ، فيقابل هذا أن الأحياء الدنيا ترسل ذريتها بالألوف وألوف والألوف ، فيبقى منها القليل الكافي لدوام النوع بعد فناء الكثير .

والأحياء العليا يقلُّ عدد المولود منها في البطن الواحدة ، فيقابل هذا أن تطول حضانتها والعناية بها ،وتجد من وسائل الصيانة ما يعوِّض الكثرة في الأحياء الدنيا.

ويغلب أن يزيد النسل حين تكون زيادة النسل هي الوسيلة الوحيدة التي يستطيعها الفرد لخدمة نوعه وضمان دوامه ، فإذا تيسرت للفرد وسائل مختلفة لخدمة نوعه فقد يجوز ذلك على نسله وينقص من قسمته في أبنائه ، كأنما خدمة النوع ضريبة مفروضة على كل فرد في صورة من الصور ، فإذا أداها في صورة أُعْفِى منها في

الصور الأخرى ، أو كأنما هي مواهب وأرزاق لا يستكملها الفرد الواحد إلا بثمن غالٍ يحسب عليه ، ويؤدي حسابه للنوع على نحو من الأنحاء .

والإنسان هو أقدر المخلوقات الحية على خدمة نوعه بوسائل كثيرة لا تنحصر في تحديد النسل وزيادة عدده .

فهل يجوز لنا أن نقول : إن العظماء الذين حرموا النسل قد أدُّوا ضريبتهم بإصلاح شئون الناس ، فلم يبق من اللازم المفروض عليهم أن يؤدوا هذه الضريبة من طريق الذرية ؟

إن قلنا ذلك فإنما نقوله على سبيل الملاحظة التقريبية التي أشرنا إليها ، ولا نبلغ بتلك الملاحظة فوق مبلغها من اليقين الذي تستحقه ، فغاية مبلغها عندنا أنها تستوقف النظر للتأمل والمراجعة ولا تؤدي بنا إلى الجزم أو التغليب .

فبعض العظماء من أكبر خدَّام الإنسانية لم يتزوجوا ، وفيهم أنبياء معظَّمون ولا شك في سيرتهم من هذه الناحية كعيسى عليه السلام . وبعض العظماء الذين تزوجوا لم يرزقوا الذرية ، أو رزقوا ذرية كلها إناث ، أو رزقوا ذرية من الإناث والذكور ولم يعيشوا .

وتواريخ العظماء في جميع نواحي العظمة ، وفي جميع الأمم ، وفي جميع العصور، مليئة بالشواهد التي تعزز تلك الملاحظة وتجعلها جديرة بالتأمل والمراجعة : يدخل فيهم القديسون كما يدخل فيهم الحكماء ، ويدخل فيهم العلماء كما يدخل فيهم رجال الفنون والمخترعون ، ويدخل فيهم القادة العسكريون والسياسيون ولا يصعب على أحد أن يرى في فترة من الزمن في بلد قريب يعرفه حق المعرفة ليشاهد صدق ذلك في عدد من عظمائه ومشهوريه ، ويكفينا في مصر أسماء جمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، وسعد زغلول ، وعبد الله نديم ، ومصطفى كامل ، مصطفى فهمي ، ومحمود سامي البارودي ، وحافظ إبراهيم .

فإذا جاز لنا أن نقف عند تلك الملاحظة وأن نتأمل مغزاها ، وجاز لنا أن نفهم أن إصلاح شئون النوع الإنساني ضريبة تغني عن ضريبة الذرية في بعض الأحوال ، فأين ترانا نجد تلك الضريبة في أرفع وأغلى قيمة إن لم نجدها في رسالة نبوية ، تتناول الأجيال بعد الأجيال ، وتتناول الملايين في كل جيل ؟

وأي أبوَّة إنسانية تغني عن أبوَّة اللحم والدم كما تغني أبوَّة النبي ﷺ الذي يتكفَّل بتربية الأرواح في أمته ، وفي الأمم لا يلقاها في زمانه ، وأمم لا تزال تستجد بعد زمانه إلى أقصى الزمان ؟

نذكر هذا حين نذكر نصيب محمد ﷺ من الأبوة الروحية ومن أبوة اللحم والدم، ونرى تكافؤاً في الجانبين جديراً بالملاحظة والاعتبار ، ألا ما أثقل الإصلاح !

ألا ما أحق المصلحين بالمجيد وحسن الجزاء .

فمحمد ﷺ الأب كان أصلح الآباء ، ثم أصيب في أبنائه مصيبة لا يتحمل ألمها إلا صبر الأنبياء .

ومن الناس من لا يكون صديقاً صالحاً ، ولا سيداً صالحاً ولا زوجاً صالحاً ، ولكنه أب صالح برٌّ ببنيه ، لأن الرحم بين الآباء والأبناء أقرب الأرحام إلى المودة، وأجدرها بتحريك الشفقة فيمن لا يشفق على أحد .

فكيف تكون الأبوة في نفس صلحت للصداقة ، وصلحت للسيادة ، وصلحت للزوجية ؛ لأنها تصلح للعطف الذي يعم القريب والغريب ويشمل القوي والضعيف؟

ذلك أب نعلم كيف يفرح بأبنائه ، ونعلم كيف يحزن حين يفجع في أولئك الأبناء .

ومن الراجح أن العطف الأبوي لم يتمثَّل أبداً في مولد أحد من أبناء محمد ﷺ كما تمثَّل في مولد ابنه الذي سماه باسم جده الأكبر أملاً في أن يصبح بعده خليفته الأكبر [1] ولعل العطف الأبوي قد تمثَّل في تشييع هذا الطفل الصغير ، أشد من تمثله في

---

(1) زعم العقاد أن النبي ﷺ كان يأمل أن يكون ابنه إبراهيم خليفته الأكبر كما كان هو خليفة أبيه إبراهيم عليه السلام الأكبر ، وإبراهيم رضي الله عنه قد وُلِد في ذي الحجة في السنة الثامنة من =

استقباله يوم ميلاده ، كانت أسباب كبيرة توحي إلى قلب محمد ﷺ العظيم شوقه الطويل إلى استقبال ذلك الوليد .

كان منها أن محمداً ﷺ عربي يحرص على الولد من بعده كحرص كل رجل من أبناء القبائل وأصحاب العصبية : هم فخورون بالنسب ، وفخورون بالأبناء ، يحفظون سيرة السلف ويتشوقون إلى استبقاء الخلف على نحو لا يعرفه أهل المدن، وإن كان حب الذرية فطرة مركبة في جميع الطباع .

ومحمد ﷺ كان يحب الكثرة لنفسه ، ويحبه لأمته ويوصي المسلمين أن يستكثروا من النسل ما استطاعوا ؛ ليفاخر بهم الأمم زيادة وعزة [1] فحب الأولاد الذكور طبيعة عربية تقترن بالطبيعة الإنسانية والطبيعة النبوية ، فتزداد قوة على قوتها . وكان من أسباب هذا الشوق القوي : طول الزمن الذي لم يرزق فيه ذكوراً بعد وفاة ولديه (القاسم ، وعبد الله) اللذان ولدتهما له السيدة خديجة رضي الله عنها ، وشماتة أناس ممن يكرهونه وسماه بعضهم بالأبتر (من لا ولد له) لانقطاع معظم نسله وفي ذلك نزول الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ [الكوثر:٣] . فقد مضى أكثر من عشرين

=الهجرة ، وتوفي في السنة العاشرة من الهجرة وهو ابن ثمانية عشر شهراً ، ومنذ ولادته والنبي ﷺ يعلم يقيناً أنه لا نبي بعده وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين يقول تعالى : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب : ٤٠] ويقول النبي ﷺ : " جِئْتُ فَخَتَمْتُ الأَنْبِيَاءَ "[صحيح مسلم] . قال الإمام النووي : "وأما ما روى عن بعض المتقدمين : " لو عاش إبراهيم لكان نبيًا " فباطل ، وجسارة على الكلام في المغيبات، ومجازفة ، وهجوم على عظيم من الزلات . والأثر الذي أورده النووي لا يصح مرفوعاً للنبي ﷺ إنما من صححه أوقفه على ابن عباس والشرطية في الأثر لا تدل على جواز الوقوع فأداة الشرط " لو " تعني امتناع وقوع جواب الشرط لامتناع وقوع فعل الشرط .

(1) حديث : " تَناكَحوا تَكْثُروا، فإنِّي أباهي بكمُ الأممَ يومَ القيامةِ [حديث مرسل ضعيف] ولكن هناك حديث صحيح في هذا المعنى وهو : " تَزوَّجوا الودودَ الولودَ ، فإنِّي مكاثرٌ بِكمُ يومَ القيامةِ " [صحيح ابن حبان]

سنة لم تلد له في خلالها زوجة من زوجاته ، ومات في هذه الفترة كل أولاده ما عدا فاطمة رضي الله عنها التي ماتت بعده بقليل : مات القاسم ، والطاهر (عبد الله) طفلين ، وماتت زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، بعد أن تزوجن ، ولم يتعوض من فقدهن ما يصبره بعض الصبر .

مصيبة تزيد من الشوق إلى الوليد المأمول . ولسنا ندري لم طالت الفترة التي مضت على أزواج النبي ﷺ جميعاً بغير إنجاب ، ولكنا لا نستبعد تعليلها باجتماع المصادافات العجيبة التي يندر أن تجتمع في أمثال هذه الأحوال : عائشة البكر التي لم يتزوج النبي ﷺ بكراً غيرها قد مات النبي ﷺ عنها وهي دون العشرين ، وهي سن قد تبلغها المرأة ولا تلد ، وإن كانت ولوداً فيما بعد . أما زوجاته الأخريات اللاتي تزوجن قبله فلا نعلم من أخبارهن أنهن أنجبن لأزواجهن الأولين غير رملة أم حبيبة ، وهند بنت أمية المخزومية (أم سلمة) وهي مسنة يوم تزوجها النبي ﷺ ، وفي عمر لا يستغرب فيه امتناع الولادة .

فكلهن ما عدا هاتين لم يلدن للنبي ﷺ ولا لزوج قبله ، واجتماع هذه المصادفة ليس بالعجيبة التي يصعب تعليلها ، إذا تذكرنا أن النبي ﷺ قد قصد في اختيارهن تلك الأهداف العامة التي أجملناها في الفصل السابق ، ولم يقصد منها النسل خاصة : وهي الحماية والمصاهرة . وبعضهن ، بل معظمهن ، قد لقين من الشدائد والمخاوف وتعب الهجرة البعيدة ، ما يعقم الولود فإذا أضفنا إلى ذلك معيشة الكفاف، وضريبة العظمة النبوية التي أشرنا إليها على سبيل الاحتمال ، واشتغال النبي ﷺ فيما بين الخمسين والستين بتقوية الدين وإخماد الفتن ، ومقاومة الأخطار ، لم يكن فهم تلك الظاهرة الحيوية بالأمر الممتنع على التعليل . [1]

---

(1) حاول العقاد البحث عن علل لعدم إنجاب زوجات النبي ﷺ التسع بعد خديجة وهو أمر لا علة فيه إلا مشيئة الله تعالى ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشُّورى:٤٩، ٥٠]

حزن الأب

طال شوق النبي ﷺ إلى الوليد المنتظر ، وتجدد شوقه بعد كل زواج ، حتى جاءت مارية القبطية من بلد بعيد ، ومن أصل غير الأصل الذي يختار ، لحماية المحزونات وتقريب الأُسَر والعصبيات ، فبشرت النبي ﷺ بحمل لعله غلام ، واجتمع في هذه البشارة شوق أكثر من عشرين عاماً ، ورجاء لا ينتهي بانتهاء الزمن .. وولد إبراهيم .

ولد الطفل الذي نظر أبوه إليه يوم مولده فامتد به الأمل مئات السنين بل ألوف السنين ، وتخير له الاسم الذي وراءه ذرية كذرية جده الأعلى ؛ ليكون أباً ويكون له أحفاد ، ويكون له أحفاد ، ويكون لأحفاده من بعدهم أحفاد [1] .

ثم مات ذلك الطفل الصغير . ومات الأمل الكبير . مات كلاهما والأب في الستين. أي صدمة في ختام العمر ؟

أي أمل في الحياة ؟ الدين قد تمَّ وهذه الرابطة قد انقطعت فليس في الحياة ما يستقبل وينتظر : كل ما فيها للإشاحة والإدبار [2] .

---

(1) لقد كان بالفعل للنبي أبناء وأحفاد حينئذ كان له أم كلثوم التي توفيت (٩ هـ) ، وفاطمة التي توفيت بعده بستة أشهر وكان له أربعة أحفاد : الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب ، ولقد بقي نسله الذين يسمون الأشراف .

(2) هذا رأي غريب بل رأي شاذ الذي ينسب للنبي يأسه من الحياة بعد موت ابنه إبراهيم فلم يعد هناك في رأي العقاد مستقبل ينتظر أو أمل يرتجى بالنسبة للنبي بعد موت ابنه وكأنه يتحدث عن رجل عادي لن يخلد ذكره إلا نسله ولا يتحدث عن نبي عظيم بل خاتم الأنبياء والمرسلين وأعظم الخلق أجمعين مهمته الأولى التي بعث من أجلها أداء الأمانة وتبليغ الرسالة و ونصح الأمة وكشف الغمة وترك الناس على المحجة البيضاء (جادة الطريق) وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا ﴾ [الفتح:٢٨] إن مهمة محمد ﷺ أن إظهار الدين الحق وترك الأتباع الذين يحملون همَّ نشر الرسالة وليس همه ترك الذرية التي تتبقي ذكره بين الناس فقد حفظ له تعالى له ذكره ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح:٤] رفع الله ذكره في الأولين والآخرين ، ونوه به ، حين أخذ الميثاق على جميع النبيين أن يؤمنوا به =

مات الطفل ولما يدرك السنتين . مصاب صغير إن كانت المصائب تقاس بسنوات المفقودين ، ولكن المصائب في الأعزاء إنما تقاس بمبلغ عطفنا عليهم ، والصغير أحوج إلى العطف من الكبير المستقل بشأنه .

تقاس بمبلغ الأمل فيهم ، والأمل يطول في بداية الطريق ، وقد يقصر في منتصف الطريق . إنما تقاس آلام المفقودين بأعمار الفاقدين ، وأي مصاب أشد من مصاب الستين وما بعدها في الأمل الوحيد الواصل بينها وبين الزمان ماضيه وآتيه؟

ما تخيلت محمداً ﷺ في موقف أقرب إلى القلوب الإنسانية من موقفه على قبر الوليد الصغير باكي العينين كاتم حزنه ضارعاً إلى الله ، ونفس هي في ذلك الموقف قد انقطع لها رجاء عزيز : رجاء وا أسفاه لا يحييه كل ينشده المصلح من رجاء .

وكأني بمحمد ﷺ كان يومئذ أقرب إلى قلوب الآتين من بعده مما كان مع الجالسين حوله ، ومع أقرب الناس إليه .

كان أقرب الناس إليه زوجاته أمهات المسلمين ، وكن يحببنه غاية الحب ما يحب النساء الأزواج ، ولكن حبهن إياه لم يكن في هذا الموقف من المقربات العاطفات ، لأنه حب أثار غيرتهن من أم الوليد مارية ، ولا لوم عليهن فيما طبع عليه الإنسان، وفيما لا يقصدونه ، ولا يقدرون عليه .

وكان أقرب الناس إليه أصحابه الخاشعون بين يديه ، وكان إكبارهم لسيد الأنبياء ينسيهم أنه أب من الآباء ، بل أنه أب أرحم من سائر الآباء . ظنوا أن النبي ﷺ لا يحزن ، كما ظن قوم أن الشجاع لا يخاف ، ولا يحب الحياة ، وأن الكريم لا يعرف

= وأن يأمروا أممهم بالإيمان به ، ثم شهر ذكره في أمته فلا يذكر الله إلا ذكر معه ، فأي ذكر يذكر بعد هذا الذكر ، ويوم القيامة لن يقول النبي ﷺ ذريتي .. ذريتي إنما سيقول أمتي .. أمتي فيقول الله تعالى " يا جبريل! اذهبْ إلى محمدٍ فقلْ : إنَّا سنُرضيكَ في أُمَّتكَ ولا نَسُوءُك [رواه مسلم] ومع ذلك لم يَحْرِم الله تعالى النبي ﷺ من الذرية كما سبق ذكره .

قيمة المال . ولكن القلب الذي لا يعرف قيمة المال لا فضل له في الكرم والقلب الذي لا يخاف لا فضل له في الشجاعة ، والقلب الذي لا يحزن لا فضل له في الصبر ، إنما الفضل في الحزن والغلبة عليه ، وفي الخوف والسمو عليه ، وفي معرفة المال والإيثار عليه .

وفضل النبي ﷺ في نبوته وفي أبوته أنه حزين وبكى ، وتلك هي الصلة بينه وبين قلب الإنسان ، وبينه وبين الناس ، وأي نبي تنقطع بينه وبين القلب الإنساني صلة كهذه الصلة التي تجمع القلوب المتفرقة ؟

وري أسامة بين زيد أن زينب بنت النبي ﷺ أرسلت إليه : " إنَّ ابْني قَد احْتُضِرَ فَاشْهَدنَا ، فَأَرْسَلَ يُقْرِئُ السَّلامَ ، ويقُولُ : " إنَّ لله مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أعطَى وَكُلُّ شَيءٍ عِندَهُ بِأجَلٍ مُسَمًّى فَلتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ " فَأَرسَلَتْ إِلَيْهِ تُقْسِمُ عَلَيهِ لَيَأتِينَّهَا . فقامَ وَمَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ، وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابتٍ ، وَرجَالٌ فَرُفِعَ إِلَى رَسُول الله الصَّبيُّ ، فَأَقْعَدَهُ في حِجْرِهِ وَنَفْسُهُ تَقَعْقَعُ (تَتَحرَّكُ وتَضْطَربُ) ، فَفَاضَتْ عَينَاهُ فَقالَ سَعدٌ : يَا رسولَ الله ، مَا هَذَا ؟ فَقالَ : " هذِهِ رَحمَةٌ جَعَلَها اللهُ تَعَالَى في قُلُوبِ عِبَادِهِ " وفي رواية : " فِي قُلُوبِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ ، وَإِنَّما يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبادِهِ الرُّحَماءَ " [مُتَّفَقٌ عَلَيهِ]

هذا رسول الله في أصدق ما تكون عليه رسالة الرسل : في الرحمة ، وفي العلاقة الإنسانية ، وغير هذا لن يكون .

ومحمد ﷺ قد اتقى رؤية طفل يموت لابنته وهو كهل غير يائس من إنجاب الأولاد، فكيف يكون حزنه على فلذة كبده إبراهيم وهو بعده فاقد الأمل في الأبناء؟! [1]

---

(1) هذا القول غير صحيح فقد حزن النبي ﷺ على ابنه القاسم جاء في تاريخ اليعقوبي " وتوفي القاسم ابن رسول الله، فقال وهو في جنازته، ونظر إلى جبل من جبال مكة: يا جبل لو أن ما بي بك لهدك وكان للقاسم يوم توفي أربع سنين. " [تاريخ اليعقوبي ج١، ص٣١٥] وما قاله النبي ﷺ في موت ابنه سوف ينسبه العقاد للنبي في موت ابنه إبراهيم لإثبات صحة ما يدعيه .

لقد كان حزنه لموته بمقدار فرحه بمولده ، وكان فرحه بمولده بمقدار أمله فيه، وشوقه إليه .

وأن العطف الإنساني كله ليتجه إلى تلك النفس الزكية وهي تتوسع فرحاً بالوليد المنتظر ، حَلَقَ الأب السعيد شعر وليده وتصدَّق بوزنه فضة على المساكين ، وذلك هو التوسع الذي وسَّعه رجل كان أقدر الرجال على وجه الأرض جاء بأقصى ما عنده من الفرح وأقصى ما عنده من التوسعة ، ولو شاء لقد كان وزن الوليد كله لؤلؤاً وجوهراً بعض ما يستطيع في ذلك اليوم المبارك.

وبمقدار هذا الفرح الطهور يوم الاستقبال كان الحزن الموجع يوم الوداع :

خرج الرجل الذي قام بأعباء الدنيا ومن فيها وهو لا يقوم بحمل قدميه : خرج يتوكأ على صديق عطوف إلى حيث يحمل الوليد آخر مرة في حجره الأبوي قبل أن يودعه التراب ، وكان يستقبل الجبل بوجهه فقال : يا جبل ! لو كان بك مثل بي لهدَّك ، ولكن إنا لله وإنا إليه راجعون . (١)

أي والله ! إنها لإحدى المصائب التي يحملها اللحم والدم ولا تحملها صخور الجبال .

وصرخ أسامة حين بكى رسول الله ، فنهاه رسول الله وقال : " البكاءُ منَ الرحمةِ، والصُّراخُ منَ الشيطانِ " [حديث ضعيف مرسل]

حزن كما ينبغي له أن يحزن ، أما الحزن الذي لا ينبغي له فهو الصراخ الذي نهى عنه ، وهو أن تنكسف الشمس يوم موت إبراهيم فيحسب المسلمون أنها انكسفت لموته، ويقول الأب الذي انكسفت الشمس حقاً في عينيه : " إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ

---

(1) تَوَكُّؤ النبي ﷺ على أحد أصحابه لعدم قدرته على السير في جنازة ابنه إبراهيم أثر غير صحيح أما قوله ﷺ: " يا جبل ! لو كان بك ما بي لهدك " إنما قاله النبي عند وفاة ابنه القاسم بدون عبارة " ولكن إنا لله وإنا إليه راجعون " ، وليس إبراهيم كما سبق ذكره .

مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لاَ يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَافْزَعُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَإِلَى الصَّلاَةِ ". [متفق عليه]

أو تخسفان ولكن في أكباد المحزونين ، وليس في كبد السماء .

أكرم الآباء

أَوَ كان من اللازم أن يكون محمد ﷺ مثال الآباء كما كان مثال الأنبياء ؟ وكذلك شاء القدر ، وكذلك رأينا محمداً ﷺ مثال الأب يوم ولد له إبراهيم ، ومثال الأب يوم ذهب عنه إبراهيم

ما يتمنى طفل ، لو جاز أن يتمنى الأطفال ، أبوه أرحم ولا أزكى من هذه الأبوة في الحالتين .

محمد ﷺ مثال الأب حيثما كان له نسل قريب أو بعيد ، وذكر أو أنثى ، وصغير أو كبير . (١)

أرأيت إلى الحسن بن فاطمة وقد دخل عليه فركب ظهره وهو ساجد في صلاته ؟

---

(1) من مظاهر حب النبي ﷺ للحسن والحسين :

١ – اختيار أحسن الأسماء لأبناء بنته –:

عن عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: " لَمَّا وُلِدَ الْحَسَنُ سَمَّيْتُهُ حَرْبًا فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ أَرُونِي ابْنِي مَا سَمَّيْتُمُوهُ قَالَ قُلْتُ حَرْبًا قَالَ بَلْ هُوَ حَسَنٌ فَلَمَّا وُلِدَ الْحُسَيْنُ سَمَّيْتُهُ حَرْبًا فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ أَرُونِي ابْنِي مَا سَمَّيْتُمُوهُ قَالَ قُلْتُ حَرْبًا قَالَ بَلْ هُوَ حُسَيْنٌ فَلَمَّا وُلِدَ الثَّالِثُ سَمَّيْتُهُ حَرْبًا فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ أَرُونِي ابْنِي مَا سَمَّيْتُمُوهُ قُلْتُ حَرْبًا قَالَ بَلْ هُوَ مُحَسِّنٌ ثُمَّ قَالَ سَمَّيْتُهُمْ بِأَسْمَاءِ وَلَدِ هَارُونَ شَبَّرُ وَشَبِيرُ وَمُشَبِّرٌ " [حديث صحيح رواه أحمد والبيهقي وابن حبان وغيرهم]

٢ – قطع النبي ﷺالخطبة للحسن والحسين ووضعهما بين يديه –:

عن أَبِي بُرَيْدَةَ قال " كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُنَا إِذْ جَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ عَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ الْمِنْبَرِ فَحَمَلَهُمَا وَوَضَعَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ صَدَقَ اللَّهُ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ فَنَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا " [حديث صحيح رواه الترمذي وأبو داود والنسائي] .

إن النبي ﷺ في صلاته لهو النبي في مقامه الأعلى . وأن النبي ﷺ في مقامه الأعلى ليشفق أن يُشْغل الصبي عن لعبه الطويل فيطيل السجدة حتى ينزل الصبي عن ظهره غير متعجل ، ويسأله بعض أصحابه : لقد أطلت سجودك ؟ فيقول إن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله ! [1] أرأيت إلى حنان يفيض على القلب كحنانه حين يرى فتاة تشبه أباها في مشيته وسمته !

تلك فاطمة بقية الباقيات من الأبناء والبنات ، يخصها النبي ﷺ بمناجاته في عشية وفاته : " إني مفارق الدنيا فتبكي . إنك لاحقة بي فتضحك [2] في هذا الضحك وفي البكاء على حاجز الفراق بين الدنيا والآخرة أخلص الود والحنان بين الآباء والأبناء .. سَرَّها بنبوته ، وسرَّها بأبوته ، فضحكت ساعة الفراق لأنها ساعة الوعد باللقاء.

وكذلك فارق الدنيا أكرم الأنبياء ، وأكرم الآباء .

***

---

(1) نص الحديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَدَّادٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي إِحْدَى صَلاَتَيِ الْعَشِيِّ الظُّهْرِ أَوِ الْعَصْرِ وَهُوَ حَامِلٌ الْحَسَنَ أَوِ الْحُسَيْنَ فَتَقَدَّمَ النَّبِيُّ ﷺ فَوَضَعَهُ ثُمَّ كَبَّرَ لِلصَّلاَةِ فَصَلَّى فَسَجَدَ بَيْنَ ظَهْرَانَىْ صَلاَتِهِ سَجْدَةً أَطَالَهَا فَقَالَ نِّي رَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا الصَّبِيُّ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺوَهُوَ سَاجِدٌ فَرَجَعْتُ فِي سُجُودِي فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الصَّلاَةَ قَالَ النَّاسُ ا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ سَجَدْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَىْ صَلاَتِكَ هَذِهِ سَجْدَةً قَدْ أَطَلْتَهَا فَظَنَنَّا أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ أَوْ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْكَ. قَالَ « فَكُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ وَلَكِنَّ ابْنِى ارْتَحَلَنِى فَكَرِهْتُ أَنْ أُعَجِّلَهُ حَتَّى يَقْضِىَ حَاجَتَهُ ».

[حديث صحيح رواه أحمد والنسائي وغيرهما]

(2) نص الحديث : عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ دَعَا النَّبِيُّ ﷺفَاطِمَةَ ابْنَتَهُ فِي شَكْوَاهُ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ فَسَارَّهَا بِشَيْءٍ فَبَكَتْ ثُمَّ دَعَاهَا فَسَارَّهَا فَضَحِكَتْ قَالَتْ فَسَأَلْتُهَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَتْ سَارَّنِي النَّبِيُّ ﷺ فَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ يُقْبَضُ فِي وَجَعِهِ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ فَبَكَيْتُ ثُمَّ سَارَّنِي فَأَخْبَرَنِي أَنِّي أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِهِ أَتْبَعُهُ فَضَحِكْتُ " [متفق عليه]